خلاصة الشعر

Sabah_ alkass@yahoo.com

صباح القس/ بغداد

فاذهبْ كما ذهب الوفاءُ فإنه
ذهبتْ به ريحا صبا ودبورِ
واذهبْ كما ذهبَ الشبابُ فإنه
قد كان خيرَ مصاحبٍ وعشيرِ
والله ما آبّنته لازيدَه
شرفا ولكن نفثةُ المصدور

هذه الابيات في جميل الرثاء قالها الشاعر الكاتب محمد بن عبد الرحمن بن ابي عطية وكنيته ابو عبد الرحمن، ولد ونشأ بالبصرة. كان شاعرا كاتبا عاش في ظلال الدولة العباسية واتصل باحمد بن ابي داود الوزير ومدحه لكن مراثيه فيه اكثر.

قيل فيه ان له فناً من الشعر لم يسبق اليه. ذهب فيه مذهب اهل الكلام من المناطقة والمعتزلة فبزهم جميعا، وسار شعره في آفاق الدولة العباسية وتناقله الرواة، وقلده كتاب وشعراء، والتفتوا الى الفاظه ومعانيه.

هذه احدى المراثي التي تشير الى فضل المرثي والمرثي صاحب يد على الشاعر لانه قدّمه وعرّفه للناس وجازاه فكان لابدّ من رد الجميل فما بينهما ليس علاقة تمايز بل اصبحا صديقين لان الاول صاحب اليد والمال والثاني صاحب الشعر والمقال وكلاهما محتاج للثاني وعند ذهاب صاحب المال ضاقت يد صاحبنا الشاعر ونقصت حاله.

وعلى هذا اخترت من قصيدته هذه الابيات الثلاثة لاني وجدت فيها اجمل ما اراد ان يقوله الشاعر في حق صاحبه.

ففي البيت الاول يربط بين المتوفي المرثي وبين الوفاء فعند ذهاب الاول فكأنما ذهب الوفاء كله لان الشاعر ربما لم يجد في بقية الاصحاب من يعوضه عن ذلك الوفاء ثم يعود ليربط بين موت المرثي والريح اي كأنه تسلل من الحياة كما تتسلل ريحا "مثنى ريح" الصبا وهي الريح الشمالية الطيبة الهادئة والدبور وهي الريح الجنوبية العاصفة المتربة.

ثم يعود في البيت الثاني ليربط بين المتوفي وبين الشباب اي ان صاحبه قد مرق ومضى من امامه كما مرق ومضى الشباب دون ان يلتفت اليه او يتمسك به، فقد كان خير صاحب وعشير.

هذا البيت يذكرني بابيات اخرى قيلت في ذهاب الشباب ومنها

ذهبَ الشباب فما له من رجعةٍ
واتى المشيب فأين منه المهربُ

وقول الاخر

الا ليت الشباب يعود يوماً
فاخبره بما فعل المشيب

وحسرة الشيوخ على مضي الشباب قضية لا تنتهي رغم ما قد يكون فيه من قسوة ومرارة.

ثم نعود الى البيت الثالث ليعترف انه ما أبّنه "والتأبين هو الرثاء ويعني ذكر ومدح وتعداد صفات الميت" ليزيده شرفا ولكن جاء هذا العمل لازاحة هم عن الصدر وكما شبهها كنفثة المصدور اي دفع الهم المخزون في الصدر كالتأفف عندنا اي عندما نقول أف طويلة... وقد تجيء كلمة المصدور بمعنى المسلول او الذي في صدره علة. وفي مكان اخر يقول الشاعر في رثاء صاحبه

وليس صرير النعش ما تسمعونه
ولكنه اصلاب قوم تقصّفُ
وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنه ذاك العناء المخلّف

فهو يشبه حركة الاخشاب التي يصدرها النعش اثناء حمله باصلاب القوم اي اضلاعهم وفقراتهم وهي تتكسر.

وفي البيت الثاني يشبه الريح المنبعثة من الحنوط المرشوش على جسد الميت "والحنوط تعني خلط بعض الاعشاب ورشها على جسد الميت لدفع الريح الكريهة واشاعة ريح طيبة تشبه المسك" لكنه اي شاعرنا يحول المعنى من الريح الطيبة الى الافعال الطيبة التي تركها في الاخرين وثنائهم عليه وهذا افضل ما يتركه الانسان عبر الزمن بعد ان يكون قد لفه الكفن.

الجوائز الأدبية فعل إيجابي أم سلبي؟ *

أسكندر حبش

بعد عقود بدا فيها الأدب العربي وكأنه يصارع وحده، شتى المؤسسات والأفكار وحتى الدول، نجد اليوم العديد من هذه الدول، وقد دخلت في قلب هذه "اللعبة" الأدبية "إذا جاز التعبير"، لتعلن عن جوائزها الأدبية والفكرية والعلمية السنوية. ربما يبدو الأمر مستغربا بمعنى من المعاني، بسبب الاعتبار الدائم للأدب والثقافة بأنهما على الهامش في عالمنا العربي هذا. كثيرا ما كنا نحتج في أحاديثنا المتكررة، على غياب الجوائز الأدبية الكبيرة، كتلك التي نشهدها في بقية دول العالم. إذ إن متابعتنا لما يحصل مثلا، مع "غونكور" "في فرنسا" أو "البوكر برايز" "في بريطانيا" أو "بلانيتا" "في اسبانيا"، وما إلى هنالك من جوائز أجنبية، كانت تجعلنا نطرح السؤال عن سبب غياب ما يشبه ذلك في أوطاننا. وكنا نمني النفس أن يأتي يوم نتوقف فيه عن اتهام "الجوائز العالمية" بأنها لا تهتم بالأدب العربي الذي يستحق أن يتبوأ مركزا أفضل مما هو عليه.

وفجأة تغير الوضع، إذ بدأت الجوائز الأدبية تنهمر علينا في العالم العربي، وحتى من دون أن نعرف السبب الحقيقي الكامن وراء ذلك، أي من دون أن نعرف سبب هذه "الصحوة الفجائية". من هنا لا بد لسؤال أول أن يطرح نفسه، هل الجائزة تصنع كاتبا؟ إذ عديدون هم الذين حصلوا على جوائز أدبية في حياتهم، لكنهم اختفوا اليوم من التداول الثقافي، بمعنى أنهم غابوا، ولم يعد أحد يعود ليقرأهم، إذ إن المهم، هو في النتيجة، أن يكتب الكاتب أعمالا حقيقية، نابعة من هذا الحس الإنساني الذي يمكن له أن يحفظ ذكرى هذا الكاتب وأعماله. حول ذلك، يقول الروائي والأكاديمي الجزائري واسيني الأعرج: "لنتفق من حيث المبدأ أن الكاتب عندما يكتب، فإنه يكتب لحاجة فيه، لنزعة ذاتية ولانشغال ذاتي وحضاري، لرغبة، ولا أعتقد أن كاتبا عاقلا يفكر ويكتب من أجل الجائزة ولكن على الكاتب كذلك أن يكتب لقراء مفترضين سيطلعون على كتابه وهؤلاء القراء يبدؤون من القارئ العادي إلى القارئ المتخصص كالناقد مثلا ويحدث رد الفعل الإيجابي أو السلبي مما يضع الكتاب في نهاية المطاف أمام مسؤولية تتجاوز الفعل الذاتي، لأن الكتابة تصبح بهذه الحالة فعلا اجتماعيا مشتركا. والجائزة هي جزء من هذا الفعل الاجتماعي أي الاعتراف بالمجهود ووضعه في ذاكرة التقييم الجمعي مما قد يعطي الكتاب وجودا جديدا من حيث ارتفاع عدد القراء ومن حيث قيمة الكاتب، الخ...". لكن ذلك لا ينسي واسيني الأعرج من الانتباه إلى أمر أساسي في الحياة الثقافية إذ إن "كل هذا مفترض أن لا يغير في إستراتيجية الكتابة لدى الكاتب وإن كان يحمله مسؤولية جديدة تجاه قرائه بمختلف تشكلاته، فالجائزة بهذا المعنى فعل إيجابي واعترافي يدل على أن المجهود المبذول له صدى ليس لدى القارئ العادي ولكن كذلك لدى القارئ المختص. من هنا تتجلى قيمة الجائزة والتي يجب أن تلعب دورا تدعيميا وأن تتحول إلى رمز صادق بمعنى أن في الوطن العربي العديد من الأدباء والمفكرين ومن الصعب أن تعطى الجوائز للجميع لكن على الأقل من تعطى له يجب أن يعبر رمزيا عن الكل مثل ما يحدث في الجوائز الاستثنائية كجائزة نوبل إذ يمكن أن يختلف الناس على الكاتب بشكل عام ولكنهم لا يختلفون عن قيمته الإبداعية الخلاقة".

الموضوعية

لكن هل يعني ذلك أن علينا إيقاف هذه الفكرة "الاحتفالية"، بمعنى من المعاني، والتي أصبحت من مكونات الأدب في العصر الحديث، مثلما أصبحت أيضا من سمات العصر الذي نحياه؟ مهما يكن من أمر ومهما كثرت الانتقادات، تبدو فكرة الجوائز فكرة ضرورية بمعنى من المعاني، إذ يرى الناقد والباحث العراقي عبد الله إبراهيم أن "الجوائز هي من المحفزات المنشطة للكتابة الإبداعية، لكنها ليست المنشط الوحيد. فبدون ظهور مجتمع أدبي يتداول الثقافة بكل معنى الكلمة، ينعدم النشاط الإبداعي الحقيقي. ولهذا فإن الجوائز الأدبية يمكن أن تساهم في تشجيع جانب من ذلك الإبداع على أن يحافظ على قواعد النزاهة والاستقلالية في كل ما يتصل بهذه الجوائز من ترشيح إلى تحكيم إلى منح الجائزة نفسها وأي خلل أو تواطؤ في إحدى هذه الحلقات سيؤدي إلى نتيجة معاكسة تماما لهدف أي جائزة. أي أن الجائزة تصبح هدفا للارتزاق والتصارع والتنافس المجاني الذي يفتقر للمعايير الحقيقية في مجال الأدب. ولهذا أدعو الهيئات المشرفة على هذه الجوائز إلى التشديد المفرط في وضع معايير دقيقة والالتزام بها ومراجعتها في كل دورة جديدة كي لا يتم اختراق أو تخطي هذه المعايير، فقيمة أي جائزة ترتسم في الأذهان بمراعاة الشروط الدقيقة لمنحها".

هذه المعايير التي يتحدث عنها عبد الله إبراهيم نجد صداها في كلام الناقد المصري صلاح فضل، إذ بعد أن يجدها "ظاهرة جد إيجابية وإن كانت قد تأخرت قليلا وبدأت عشوائيا ثم لم تلبث أن تقاطرت بعد ذلك بإيقاع معقول" يضيف فضل، في كلامه، شروطا لـ "كي تحقق غايتها من إبراز المنجز العربي في المجالات المختلفة والإسهام في تحقيق نهضة فعلية" إذ ينبغي أن تتوفر لها الظروف التالية، وهي بحسب فضل تتوزع على خمسة بنود: "أولا، أن تتحول من مبادرات فردية يقصد بها أصحابها شيئا من المجد والذكر الشخصي إلى مؤسسات حقيقية ذات نظم متبعة وآليات دقيقة وأهداف محددة. ثانيا، أن ترتكز على أسس موضوعية في التحكيم يلتزم أكبر قدر من الشفافية والدقة العلمية والموضوعية دون أدنى ظل للتحيز الإيديولوجي أو الإقليمي أو أي شكل من أشكال التحيز وأن تأخذ في اعتبارها دائما المستوى الذي ينشد الرقي بالإنتاج العربي.

ثالثا، أن تتنوع المجالات لتوزع بالتعادل الدقيق بين الثقافات الإنسانية والعلمية فما زلنا متخلفين في مجال الانجاز العلمي والعلوم التطبيقية البحتة ونحتاج إلى قوى ضخمة للدفع بحركة هذا الإنتاج على مستوى المنافسة العالمية. رابعا، أن تكون النخبة التي تستهدفها هذه الجوائز في نهاية الأمر هي الدفع بالمنجز الإبداعي والثقافي العربي ليدور في الفلك العالمي ويصبح قادرا على الإضافة إليه والتنافس الحر معه وقد يتأتى ذلك بتنسيق مجالات ثقافية منظمة بالترجمة والوسائل الأخرى لتقديم الأعمال الفائزة إلى الثقافات الأخرى".

لحظة حقيقية

بدوره يعتبر الباحث العراقي رشيد الخيون، أن "ظاهرة الجوائز وتعددها ظاهرة إيجابية وداعمة للثقافة بدون شك وبالتحديد داعمة للمثقف وربما أكثر من الثقافة نفسها. لا يجوز أن نتعامل مع المثقف هذا الكائن الناسك والمتقشف باعتبار أن الآلام هي المحفز الأكبر لشعر أجود وأدب أجود، ومعلوم أن فئة المثقفين هي الفئة الأقل رفاهية ومالا من غيرها، لأن الثقافة مجال غير استثماري". لكن هذا الدعم لا ينسي الخيون بعض التحفظات، إذ يجد أن "الجائزة بحد ذاتها سيف ذو حدين، فهي إما أن تأتي عبر مؤسسة لها أسسها ولها ثوابتها تتعامل مع المثقف على أساس إبداعي وإما أن تكون مجرد مهرجان لتقديم جائزة ودعاية للمؤسسة المانحة". ويضيف، "من جانب آخر على الجائزة أن لا تتحول إلى هدف لدى مثقفين يتنافسون من أجل الحصول عليها، بهذه الحال سيكون الأمر عبارة عن سباق، ويمكن تجاوز النزاهة فيه وحتى الإبداع نفسه على طريقة التنافس بين طلبة المدارس، وهذا نوع من التقليل من شأن المثقف". إزاء هذا نجد في كلام الخيون ما يشبه رأي الكاتب الجزائري واسيني الأعرج، إذ يقول: "على المثقف أن لا يفكر بالجائزة عندما يكتب وينتج مثل الناسك أو الإنسان الذي يعبد ربه من أجل الثواب، أو آخر يعبد ربه لأنه يستحق العبادة. فالفرق بين الفئتين كبير جدا ولا بد أن تكون هناك مخاطر تحمي الجائزة من الالتفاف عليها، وفي الأخير تعطى لمن هب ودب وهذا يتعلق باختيار المحكمين أنفسهم".

لا يشذ رأي الكاتب والباحث العماني عبد الله العليان، عن آراء زملائه، إذ يعتبر أن "ظاهرة الجوائز العربية تشكل دعما إبداعيا للإنتاج الفكري والثقافي العربي خاصة أن هذه الجوائز تدفع المبدعين العرب إلى استخراج الطاقات الخامدة أو الساكنة لأسباب وظروف متعددة، منها عدم القدرة على طباعة إبداعهم وإهمال الكثير من المؤسسات العربية الثقافية والفكرية الرسمية على تشجيع هؤلاء المبدعين". ويعتقد العليان أن "هذه الجوائز، ستساهم في تحفيز هؤلاء وتجعلهم أكثر قدرة على تقديم أعمالهم الإبداعية وعلى الانتشار وهذه خطوة جيدة لرفع مستوى الثقافة والإبداع في الوطن العربي".

من هنا يخلص إلى القول بأنها "ظاهرة إيجابية تستحق أن تسلط عليها الأضواء والاهتمام والدعم لأنها فعل مشجع على إبداعات المفكرين والباحثين والمبدعين في الوطن العربي". مهما كثرت الانتقادات، تبدو فكرة الجوائز الأدبية، فكرة "ضرورية" اليوم، إذ لا بد أن حضورها يثير الكتاب ويشجعهم على العمل أكثر، مع الانتباه على كيفية اختيار لجان التحكيم، مثلما يجد عبد الله إبراهيم وصلاح فضل. أي بمعنى أن تتحول الجائزة إلى لحظة ثقافية حقيقية لا إلى مهرجان توزيع صاخب يختلط فيه الطعام والأزياء والحضور المسرحي.

* موقع باب

القربان

غسان نصر راغب

كان جالسا وهو في مقتبل العمر امام شاشة التلفزيون وهو يرى كيف تقدم القرابين الى رئيس القبيلة في احدى قبائل اكلة لحوم البشر كان يرى كيف يختارون شخصا لكي يذبحوه قربانا للالهة وكان يضحك كثيرا متسائلا هل يمكن ان يكون ذلك كله حقيقة وهل يمكن ان يكون الانسان ضحية بهذه البشاعة. هو شاب محب للحياة طموح مليء بالحيوية. اما صديقه الاكبر سنا منه فانه لم يستغرب ابدا من موضوع اكلة لحوم البشر وبانهم موجودون في كل بلد ولكن بصور مختلفة وان هناك الكثير من البشر يقدمون كقرابين.

كانا صديقين في الطفولة والكبر. ومن عادته التي اعتاد عليها حب الوقوف على ضفاف نهر دجلة وان يمشي في شوارع بغداد وازقتها المعروفة فحب بغداد والعراق في دمه. اجتهد في حياته واصبح مهندسا اراد ان يبني ارضه ووطنه وان يظفر بحبيبة عمره والتي عاشت معه في نفس الحي الذي تربى فيه في بغداد. ولكن فجأة تسوقه الاقدار الى الحرب وفجأة تبدأ حرب فمن اين اتت؟ كيف حدثت؟ المهم انها تحققت ليكون الثمن الاول الذي يجب ان يدفعه وان يفرض عليه. وعندما عاد من الحرب عاد من الجحيم عاد بعد ان فقد اهله الامل بعودته لكنه عاد ليرى امه واخوته ينتظرونه. سأل عن ابيه فقالت له امه انه قد رحل قد فارق الحياة حزنا عليه اثناء غيابه. سأل عن بنت الجيران التي كان يريدها زوجة له قالوا له تزوجت لا تفكر بها بعد الان، لكنه لم يمنع نفسه من ان يراها او يخطف نظرة سريعة ولو من بعيد، فشاهدها هي واطفالها وزوجها ولم تشعر به ولم تره واختفت والى الابد وكان ثمنا آخر وآخر وكل قربان يتبعه قربان آخر. كان الضحية في كل مرة وفي كل زمان ومكان وكأن الاقدار والمجتمع والناس والعالم كله ارادوا له ان يكون ضحية. ومرة اخرى وفجأة الحرب من جديد لتبدأ بعدها عذابات السنين. وبرغم المسؤولية الملقاة على عاتقه وبرغم العمل واجره القليل وبرغم الزمن الصعب الذي شح فيه كل شيء كان مع ذلك سعيدا عندما يرى نهر دجلة وهو يتحرك ولا يقف فكان كالنهر الخالد الجميل يتحرك ويجري الى الامام ولا يقف. لكن ومرة اخرى تأتي الحرب وتأتي حرب تلو اخرى ويفرض عليه ثمن آخر جديد وكأن عليه هو فقط ان يدفع الثمن، لم يبق له شيء سرقوا منه كل شيء سرقوا حياته ونفسه واهله وحبيبته وقدموها قربانا للالهة الجديدة. تزاحمت الاحزان في عقله وكثرت الشجون في نفسه كان يريد ان يمشي كثيرا دون توقف بالرغم من الانفجارات والعبوات والمفخخات كان يريد ان لا يتوقف مثل دجلة والفرات كانوا يريدون له ان يتوقف ولكنه كان يحب النهر ويحب الحياة. وبينما هو يمشي سد الطريق مجموعة من المسلحين المجهولين كما تسميهم قنوات الاخبار وفضائيات الاعلام. واخذوا يطلقون النار ويقتلون الناس كان عليه ان يرى تلك الصورة البشعة فتذكر اكلة لحوم البشر وهم لا يتوانون في اكل الانسان.

كان عليه ان يدفع ثمنا وهو ان يتحمل بشاعة هذا المنظر ولكنه هذه المرة وقف في وسط الشارع وصرخ في وجه القتلة قائلا "الى متى يجب ان ابقى ادفع ثمنا وابقى ضحية الى متى". وجهوا له غير مكترثين رصاصة استقرت في قلبه وانتهت بذلك معاناة تلك النفس القلقة او التي جعلوها قلقة.

تجمع الناس من حوله واخذوا يتساءلون عن هوية واسم هذا الانسان المغدور ولكن بين زحمة الناس ظهر صديق الطفولة صدفة ونظر اليه وهو ممدد على الارض اخذ يبكي واطال في البكاء وكان يقول ويصرخ بصوت عال لقد قلت له ولم يصدقني، فقالوا له هل تعرفه جيدا، قال لهم نعم اعرفه، سألوه من هو، فقال لهم انه "القربان".

الصحافية جاين ماير تكشف الوجه الخفي لبوش في كتاب جديد

بهرا ـ وكالات

صدر في الولايات المتحدة هذا الاسبوع كتاب يتهم ادارة الرئيس جورج بوش بانتهاك اتفاقيات جنيف عبر ممارستها التعذيب في "حربها على الارهاب" ما قد يعرضها، على حد زعم مؤلفته، للمحاكمة بتهمة ارتكاب "جرائم حرب".

والكتاب الذي يستند في اتهاماته الى تقرير للجنة الدولية للصليب الاحمر، لم يتم نفيه، وضعته الصحافية جاين ماير الاختصاصية في الاستقصاء ومكافحة الارهاب في اسبوعية "ذي نيويوركر".

ويقع الكتاب في ٣٩٢ صفحة وقد صدر هذا الاسبوع في الولايات المتحدة وعنوانه "الوجه المخفي" (دارك سايد) وهو يشرح "كيف تحولت الحرب على الارهاب الى حرب على المثل العليا للولايات المتحدة". وبحسب الكتاب فان اللجنة الدولية للصليب الاحمر اعدت تقريرا بعد لقاء موظفيها ١٤ معتقلا من المتهمين بالارهاب وسلمته في ٢٠٠٧ الى وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية "سي اي ايه" التي رفعته بدورها الى الرئيس بوش ووزير الخارجية كوندوليزا رايس.

ويذكر الكتاب تحديدا حالة ابو زبيدة، ابرز قيادي في القاعدة القت الولايات المتحدة القبض عليه. وتقول الصحافية ان الصليب الاحمر "وصف الاساليب التي اخضع لها المتهم بانها ومن دون ادنى شك اساليب تعذيب". وتضيف المؤلفة ان الصليب الاحمر "حذر من ان هذا الانتهاك يشكل جريمة حرب تضع كبار المسؤولين في الحكومة الاميركية في موضع يمكن فيه محاكمتهم بحسب مصادر مطلعة على التقرير". واقرت ال"سي اي ايه" بان ابو زبيدة اخضع لتقنية "الايهام بالغرق". ويشرح الكتاب ايضا كيف ان الادارة الاميركية اعتقلت سرا، ومن دون توجيه اتهامات اليهم، الاف الاشخاص في معتقل غوانتانامو "كوبا" وسجن ابو غريب في العراق وسجون اخرى في افغانستان او سواها من الدول، ومن بينها دول اوروبية، وكيف ان هؤلاء المعتقلين، وبعضهم ابرياء، تعرضوا للتعذيب ما ادى الى خلق ما يشبه الغولاغ "معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفياتي سابقا". واكدت المؤلفة ان نائب الرئيس ديك تشيني غيرته اعتداءات الحادي عشر من ايلول وبانه قادر على الحصول على كل ما يريد من الرئيس بوش. واوردت ماير في كتابها انه "لفهم الرد المدمر للذات لادارة بوش على ١١ ايلول يجب توجيه الانظار الى ديك تشيني الخبير في نهايات العالم والمناصر من دون اي عقد لتوسيع صلاحيات الرئاسة".

واضافت "للمرة الاولى في تاريخها دربت الولايات المتحدة موظفيها على تعذيب سجنائها جاعلة من التعذيب قانونا".

واشارت الصحافية الى ان الولايات المتحدة اصبحت البلد الاول في العالم في تبرير انتهاكات اتفاقيات جنيف التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية والتي تحتفظ وزارة الخارجية الاميركية بنسختها الاصلية في واشنطن.

الا يكفي؟

لونا يوارش هيدو

قد آن آوان قطف الورد
وقد آن الآوان لتخلعي ثوب
حزنك
لترتدي احلى الفساتين
فقد احرقنا شموع عمرنا
سراباً
إلايكفي حزناً؟
فأن الشمس ستوافينا ذات
يوم
والقمر عاهدنا ان يظهر في
عتمة الايام
ايها الرحالة لاترحل
إلايكفي الرحيل؟

والله لم ننسَ أعياد الميلاد
ولا مواكب العزاء في
عاشوراء
ونذور الامهات وقدور الثواب
إلايكفي انتظاراً
ياقيثارة الكلمة.. الكلمة فيك
ترتيلة شعر
يادجلة الخير دعينا نرمي فيك
تنهدات نفوسنا
ودموع قلوبنا العطشى..
فكم عازف سكب فيك
الحان غرامه وغاب
إلايكفي صمتاً؟

التربية في المجتمعات البدائية..أهدافها ووظائفها

إبراهيم الجابري

لابد لكل مبتدئ في دراسة التربية ولكل من يعمل في الحقل التربوي من أن يكون على قدر من المعرفة بتطور مفهوم التربية عبر العصور المختلفة ذلك ان فهم وإدراك معنى "التربية" والتطور الذي مرت به أقدم العصور حتى الوقت الحاضر يساعد الى مدى بعيد على تكوين إطار نظري لدى المربي يستند الى الاسس التاريخية للنظريات التربوية المختلفة فالمربي يمكنه عندئذ الإفادة من هذه الخبرات المتراكمة في مناقشة مفهوم التربية واهدافها ووظائفها وتطبيقاتها في مجالات المناهج وطرق التدريس والادارة وغيرها بشكل الذي ينسجم ومتطلبات المجتمع الذي يعيش فيه.

فالدارس لمفهوم التربية ونظرياتها المختلفة على مر العصور وفي مختلف الاماكن يمكنه لا حاجة بثقافة عامة تساعده لا بصيغة النقل بل بصيغة التفاعل في تموين النظرية التربوية المرتبطة تبثق عنها وتصب فيها بالاضافة الى ارتباطها بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي انما ترتبط بحاله سايكولوجيه غير مجردة وانما ترتبط هي الاخرى بالعوامل الموضوعيه في المجتمع لذلك فان النظرية ما لم تفهم في ظل أي واقع تكونت سايكولوجيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وغير ذلك.

لا يمكن تحقق الاستفادة منها بصيغة التفاعل لتكون النتيجة ذات قيمة حقيقية وجدية من اجل صياغة النظرية المحلية وفي ضوء ما تقدم تتبين لنا باعتبارنا ستكون مسؤولين جميعا من مربين ودعاة الى إيجاد صيغ موضوعية وعلمية على احتضان تلك القيم والفلسفات التي استندت إليها عمل الحركة التربوية.

ان التغيرات التي تطرا في شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسايكولوجية المرتبطة كما في شتى المجتمعات اثرها الفعال في تطور مفهوم التربية ووظائفها فهذه التغيرات تجعل للعملية التربوية مهمات جديدة تختلف من حيث النوع والكم عن مهمات التي تتطلبها في فترات سابقة اخرى وان هذه المهمات الجديدة للتربية بتفاعلها مع المهمات الايجابية التي نتطلع عليها بدراستنا لتاريخ نظريات التربية وكذلك مفاهيمها عبر العصور وسنحاول ان نجعلها في سلسلة حلقات تلك الحلقات التي تهتم بدراسة واستعراض مختلف النظريات والآراء التربوية القديمة والحديث بشأن مفهوم التربية الواسع وكذلك بيان اهدافها ووظائفها ولابد من الإشارة الى اننا عندما ندرس ونناقش تلك الاراء والنظريات ينبغي ان نتنبهه بكل دقة الى الزمن الذي قبلت فيه تلك الآراء والنظريات والواقع الذي كان يسود المجتمع انذاك ولابد معرفة خيوطه المعرفية وتحصيلاته الذوقية والروحية ولابد من التعرف على مفهوم التربية واهدافها ومهماتها في المجتمعات البدائية من ألقاء نظره سريعة على واقع تلك المجتمعات التي عاشت قبل ألاف السنين في مناطق متعدده في هذا العالم.

فقد كانت المجتمعات البدائية بالرغم من تباينا في كثير من سلوكيات والعادات والقيم كانت تتبث به الى حد كبير في أمور أخرى عديدة مما يجعلها تتميز بشكل واضح عن المجتمعات التي عاشت في الازمنه اللاحقة ويمكن أن تكون خصائص ذلك المجتمعات بما يلي بساطة الحياة وعدم تعقدها وقلة متطلباتها فلم يكن هدف الفرد في تلك المجتمعات يتجاوز حدود إشباع حاجاته الاساسية للعيش من مأكل ومشرب وملبس ومسكن والحفاظ على حياته من اعدائه بشرا كانوا أو حيونات أو ارواحا شريرة كان يعتقد وجودها حوله. بنفس ذات الوقت يعتمد على النفس في توفير كل مستلزمات حياته كذلك كان الفرد مؤمن بوجود القوى الروحية وراء كل قوة مادية في البيئة التي يعيش فيها وقد تكون هذه القوى الروحية خيره او شره فيعزوا كثيرا من الحوادث وتقلباتها الى تلك القوى مثال البراكين والزلازل.

وفي ضوء هذه الخصائص الكامنة في طبيعة ذلك المجتمع كانت التربية في خط يوازي تنقلات الخبرة والإنسانية والتقاليد السائدة في تلك المجتمعات عن طريق نقلها بالتقاليد والمحاكاة وتدريبهم على كيفية تحقيق متطلبات العيش واستمرار الحياة عن طريق الصيد والزراعة والدفاع عن النفس وعلى كيفية تحاشي الأرواح الشريرة عن طريق العبادة.

فالتربية في المجتمعات البدائية كانت تهدف إذن الى نقل التقاليد والعادات وطراز الحياة وأساليب العيش المختلفة عن الكبار الى الصغار عن طريق التقليد والمحاكاة فلم يكن هدف التربية في تلك المجتمعات يتعدى تدريب الطفل بشكل تدريجي على مختلف الإعمال والسلوكيات أو المعتقدات الخاصة ذلك والمجتمع وأحيانا ينشئ لهم معسكرات تعطى لهم لون واحد من السلوكيات كما هو عند اليونانيين القدامى فنستطيع القول أن التربية بأبسط معانيها ترمي الى تحقيق التوافق والانسجام بين الفرد وبيئته المادية والروحية إما أساليب تحقيق التربية لأهدافها في تلك المجتمعات الإنسانية البدائية في العصور القديمه فقد كانت تتم بشكل غير مباشر وغير مقصود عن طريق التقليد للاشعوري من قبل الصغار للكبار وعن طريق مساهمة الصغار لمباشرة في الأنشطة المختلفة للعائلة وللمجتمع إذ لم تكن هناك إيه مؤسسة متخصصة للتربية بل تقوم العائلة والمجتمع بهذه المهمة التربوية وقد كان الفرد يخضع خلال حياته اضافة الى الاتصال المباشر والتقليد الى عدد من الطقوس التي تبدأ عادة في الايام الاولى لحياته فترات متلاحقه طوال حياته ويكون الاباء والامهات وكبار السن من ذوي الخبرة في المجتمع هم المسؤولون عن متابعه تنفيذ هذه الطقوس لكل واحد من افراد المجتمع.

وتتباين تلك الطقوس تبعا لتباين الشعوب من جهة وتبعا لتباين مرحلة نمو الفرد من جهة ثانيه ولكن يلاحظ بصورة عامة انه كان للمرأة الدور الرئيسي لدى معظم الشعوب البدائية في تربية الطفل فهي التي تتولى الاهتمام به منذ بداية حياته كأم ثم يخضع بع ذلك لطقوس جديده تساعده على الاندماج في مجتمعه عند سن الرشد وقد تشكل هذه الطقوس التدريب الشديد على استخدام السلاح والطاعة وطقوس العباده والقيام ببعض الاعمال الاخرى.

وتشير الدراسات الخاصة بأساليب التربية لدى الشعوب والمجتمعات البدائية الى انها تميل في معاملتها للاطفال الى استخدام اللين واعطاء الطفل الحريه في الطبيعة عدا حالات التدريب على السلاح وعلى الطقوس الدينية.

وما يمكن استنتاجه هنا ان المجتمعات البدائية بالرغم من خلوها من المؤسسات التربوية المتخصصه كانت تؤكد وبشكل غير مقصود على جانب النمو الجسم والعقل والروح بشكل متناسق الى حد ما كما انها تؤكد على عدم الفصل بين الفكر والعمل بصورة عامة ويمكن القول ان المجتمعات البدائية تكون فيها التربية غير مقصودة قائمة على التدريب والتلقين والتقليد وكذلك تغير محافظة لا تتطور بسهولة وانها تؤكد على بعض المظاهر الخلقية الايجابية الحماسية الاحترام للكبار والدفاع عن المجتمع والطاعة.

ان مفهوم التربية في الحضارات القديمه تطور بتطور المجتمعات البدائية الاولى التي عرفناها في ما تقدم حيث تطورت الثقافة الإنسانية واصبحت اكثر تعقيدا ووجدت مؤسسات متخصصة لتربية وتعلم الاطفال حتى الموروث العراقي السومري، يؤكد على ان هنالك مؤسسات صغيرة تبنت رجال يعلمون على الالواح في بيوت الطين وقد تطورت تلك المجتمعات البدائية واصبحت بشكل دويلات وحضارات متميزه تركت اثار واضحة كان لها دور في تطور التربية على مر العصور اللاحقة ومن ابرز الحضارات: "الحضارة الصينية" و"الحضارة الهندية" و"حضارة وادي الرافدين"، البابلية والاشورية وغيرها وقبل التوصل الى ما كان عليه مفهوم التربية واهدافها ووسائلها في تلك الفتره من التطور التاريخي لابد ان نقف قليلا وبشيء من التركيز على طبيعة تلك الحضارات والمفاهيم السائده ففي حضارة الهند القديمة والتي تعد من ابرز مميزات المجتمع الهندي في تلك الفترة الروح الطبيعية التي كانت تسوده الافكار البدائية المتطرفة التي كانت منتشرة بين افراده فقد كان المجتمع الهندي مقسما الى طبقات وراثية لا يمكن للفرد الذي ينتمي الى طبقة الانتقال منها الى اخرى مهما كانت مواهبه وامكانياته كما كانت الافكار الدينية تحد من نشاط الفرد وفعاليته في مجتمعه لانها تؤكد على التأمل الصوفي وعدم خضوع الفرد لميوله وتفكيره وان يكون هدفه في الحياة الهرب منها وافناء روحه واطفاءها من اجل الخلود.

وقد كان لهذا النظام الطبيعي والتفكير الديني المتطرف اثره في الوضع التربوي في ذلك المجتمع.

فالكهنه المسؤولون عن التربية في الهند انذاك كان همهم الوحيد هو القضاء على روح الابداع والتفكير عند الطفل الذي يتلقى التعليم على ايديهم وذلك عن طريق تلقيه مذاهب التقشف والعزوف عن الحياة واحتقارها والارواء عنها وهكذا نجد ان الانسان في المجتمع الهندي كان يولد عبدا ويموت عبدا في طبقة وبتفكيره الديني المتطرف الذي يتلقاه في اثناء حياته على انه لابد من الاشارة الى وجود بعض المدارس بالمستوى الابتدائي يتم فيها تعليم القراءة والكتابه وان الكهنه هم المعلمون في هذه المدارس كان يحق لهم استخدام العقاب الجسدي بانواعه المختلفة اما الدراسة في المراحل الاخرى فقد كانت مقتصرة على الكهنة الذين يتلقون دروسا في الخطابة والمنطق والفلك والرياضيات وسنرسل في كتابة الحلقات الاخرى عن الحضارة الصينية والتربية في حضارة وادي الرافدين واليونان والرومان.

مُدَرّستي هي مدْرستي

فائزة احمد محمد

الطاعة بالاكراه، والانصياع الجبري.

ما ان يرفع القيد عنه حتى يتفجر غضبا وكراهية.

وان استمر هذا سيخلق عقدا نفسية يصعب علاجها.

بموضوعي هذا. ادخل مدخل خير انشاء الله.

عزيزتي مربية المستقبل.

المدرّسة الفاضلة.. اينما كنت. رفقا بطلبتنا الاعزاء.. بكل مراحلهم كوني المرفأ الامين لجوارحهم.. واستيعاب مشاكلهم!

هناك حالة لمستها بنفسي عند استدعائي لمجلس اولياء الامور في احدى المدارس فما سمعت من مدرسة مادة "الاسلامية" الا الالفاظ السوقية التي لا تليق بعمر الطالب ولا بمستواه العلمي فكان كلامها مناقضا تماما للمادة التي "تدرسها". فقلت في نفسي. ما نوع الجيل الذي سوف يتخرج تحت وطأة هكذا نموذج لا يمت لاخلاقياتنا بصلة...

ان "علم النفس" "وطرق التدريس" هي من اهم المواد التي درستيها قبل تخرجك.. كيفية توصيل المادة الى الطالب. وكيفية التقرب منه لتعرفي ما يعانيه من خوف، او عوز معنوي او يكون عزيزا قد فقد في العائلة وخرج الى المدرسة وفي سمعه عويل ام او اخت منكوبتين. وصل الى مدرسته وهو تحت طائلة اللحظة المواتية للموت، تفخيخ، انفجار، رصاص، هل انت في غيبوبة من المجتمع وما يعانيه.

الم يكن في حساباتك كل هذا...

لماذا تشاركين الارهابي في طمس معالم شخصيته؟

إنزلي الى مستواه وتعرفي على ما يعانيه.. بأي حق استخدمت "اول الداء الكي" ايتها المربية: "فما الدين الا المعاملة".

املئي قلبه بهذا السر الذي تملكينه "من القراءة والاستيعاب" لانه المصدر الحقيقي لكل علم.. وبهذا أرحت نفسك. وارحتنا...